عصر الدولة العلوية

أ- التاريخ السياسي (ج1).

- **الظرف العام:** كان الظرف الدولي العام نذيرا للمغرب بتطورات سياسية واقتصادية خطيرة؛ إذ أسهمت الاكتشافات الأوربية والمستعمرات الجديدة في جعل المغرب ممرا استراتيجيا للسفن الأوربية، أدى إلى احتلال بعض مدن الساحل المغربي؛ ثم مع التطور الحضاري أصبح المغرب مستهلكا مهما لمنتجات هذا التطور الأوربي الذي تنافست عليه المؤسسات التجارية الأوربية خدمته بمعاهدات واتفاقيات. وكان القرن السابع عشر فاتحة عهد الملكيات المطلقة في أوربا بعد العهد الإقطاعي. ونشطت انكلترا وهولندا وفرنسا الصدارة في التجارة الدولية بفضل أساطيلها، وسعت تدريجيا لاحتكار الاقتصاد الدولي، خاصة مع نمو حركة التصنيع وإنشاء شبكة كبرى من المصارف، وتعاطفت معها الكنيسة، التي حاولت بروحها الصليبية وقف المد العثماني ومضايقة التواجد الإسلامي بالشمال الإفريقي.

وكان العثمانيون في أوج سلطانهم؛ فقد حاصروا فينا (1683م) واستعادوا بغداد (1638م) وأخذوا اقريطش. أما المغرب الإسلامي فكان في عصر انحصار دور العناصر الوطنية في حماية البلاد، وبروز دور الأعلاج والأتراك والمرتزقة الأجانب والعناصر الزنجية التي ستدير أموره بطرقها. وكان المغرب الأقصى قبل ظهور العلويين في قلق كبير؛ فقد كان إقليم السوس والصحراء الغربية ودرعة بيد أبي حسون السملالي؛ وكان الخضر غيلان في ناحية الهبط (الغرب) في قصر كتامة؛ وفاس وما جاورها بيد الدلائيين؛ والشيخ أعراس بالريف؛ وأسرة الشبانات بمراكش؛ وكانت القبائل مضطربة تهاجم إذا وانتها الفرصة الحواضر. وبقيت سبتة والمعمورة والعرائش وأصيلا تحت حكم الإسبان، والبريجة تحت حكم البرتغال، وطنجة تحت حكم الإنجليز. وقد خلف كل هذا اختلالا اجتماعيا واقتصاديا وتجاريا لشعوب المنطقة.

أ- نشأة الدولة:

كان نزول الحسن الداخل العلوي إلى سجلماسة بطلب حجاجها بالحجاز، وقد كانوا متعلقين بظاهرة بركة الأشراف، ومن ينبع حل عليهم في أواسط ق07ه (13م)، وكان يفصل بينه وبين جده محمد النفس الزكية خمسة عشر جيلا. ومن نسله مولاي على الشريف ذي السمعة الحسنة في جهاد الأندلس ووثني الصحراء (ق09ه). ومن نسله الشريف بن علي، وكانت سجلماسة تابعة في زمنه لأبي حسون؛ ففسد ما بينهما، وثار عليه وبويع من أهلها، فقبض عليه واعتقل بالسوس (1047ه/1637م)، لكنه فر وعاد إلى سجلماسة حيث زهد في الأمر إلى وفاته (1069ه).

ـ محمد بن الشريف (1050ـ1069**ه**/1640ـ1658**م**): وظهر ابنه مولاي محمد على الساحة وتصدى لقوات أبي حسون وطردها (1050ه/1640م) من سجلماسة وبايعه الناس. ثم اتجه إلى طرد قواته من درعة والصحراء المجاورة بناحية الحراطين ذات المزيج الاجتماعي الإفريقي البربري العربي. وخشي الدلائيون من الأمير الجديد فغزوه وانتصروا عليه (معركة القاعة 1056ه) ثم تصالحوا بعد تنازل منه عن بعض المناطق. وأخفقت محاولته بعد بيعة أهل فاس له الكارهين للحكم الدلائي (1059ه)؛ فاتجه إلى توسيع نفوذه نحو الصحراء الشرقية ودخل وجدة ثم أوقع بالأتراك بنواحي تلمسان (1064ه)، وتلقى بيعة القبائل، ووصل إلى الأغواط وعين ماضي، وعاود مهاجمة تلمسان (1068ه). ثم ثار عليه أخوه مولاي الرشيد بتازا الذي ينهزم (1074ه) ويلجأ إلى القبائل الشرقية (الشراكة). حيث سواجهه من جديد (1075ه) ويلقى مولاي محمد حتفه في أول طلقة رصاص (1075ه).

- **رشيد بن الشريف** (1075ـ1082**ه**/1664ـ1672**م**): كان أهل سجلماسة أول من ثار عليه قادهم مَحمد بن مولاي محمد، فافتتحها رشيد، الذي يعاود الثورة بها ثم بمراكش حيث يقبض عليه (1082ه) ويعتقل بتافيلالت. وتلقى مولاي رشيد بيعة المغرب الشرقي كله واتخذ جيشا قوامه قبائل الشراقة العربية من بني عامر والشجع والبربرية من بني سنوس ومديونة وهوارة وبنو يزناسن. وتصارع مع أهل فاس دون جدوى، واتجه فأخضع الريف وثائره عبد الله أعراس (1076ه). وفي حملته الرابعة على فاس استطاع دخولها وقضى على ثوارها وأحكم أمرها وعين قاضيها (1076ه). ثم فتح القصر الكبير، وأتته بعدها بيعة سلا وتتابعت البيعات. ثم افتتح تطوان أخذها من أسرة النقسيس. ثم بعد صراع استطاع دخول الزاوية الدلائية (1079ه) وعفا عن أهلها لكنه هدمها، ونفيت عائلة محمد الحاج إلى فاس ثم تلمسان. ثم توجه إلى فتح مراكش التي كانت بيد أسرة الشبانات (بنو شيبان من معقل)(1079ه). وعانى في اخضاع السوس وكان أميرها أبوحسون قد توفي؛ فدخل إيليغ ثم تارودانت بعد مدافعة شديدة من أهلها (1081ه).

وكانت فرنسا قد ضجرت من غزاة البحر المغاربة فوجهت بعض سفنها لقنبلة مدينتي سلا والرباط (1081هـ). وفي أوائل سنة 1082هـ بدات عمليات الهجوم على الأنجليز بطنجة بتدبير مولاي الرشيد. وقضى الرشيد آخر أيامه بمراكش، وكانت وفاته بسبب جموح فرسه وإصابة غصن شجرة لرأسه هلك منه في ذي الحجة 1082هـ. وصف هذا الأمير بالقسوة والغلظة، وصرامته ضد حركات التمرد، على أن حاجة البلاد للوحدة كانت تستلزم ذلك، وقد استطاع أن يفعل في سبعة سنين ما لم يفعله أحد في تاريخ المغرب قبله من توحيد البلاد، وإن وقع في أخطاء، كعدم اعتماده على أسرة النقسيس كقوة مدافعة للغزو الأجنبي، واعتماده على عصبية قبائل الشراقة وهم عرب بادية تلمسان، الذين سيكون لهم دور سلبي في الأحداث.

بـ الدولة الإسمعيلية، مولاي إسمعيل (1082ـ1139/1672ـ1727م): كان خليفة أخاه على مكناس، وقد أصبح سلطانا من غير عهد وعمره 26 سنة، وعرف عنه الصرامة وعدم التسامح مع المنفلتين، وكان ذكيا ذي روح دينية عميقة.

وقامت الثورات عليه؛ فكان أول القائمين أحمد بن محرز أحد أنجال إخوة السلطان، ساندة أخوه الحران وعامل مراكش، وسرعان ما هزم الثوار ودخل السلطان مراكش (1083هـ). ثم عاد الثائر إلى مراكش من جديد فحاصرها السلطان ودخلها (1088هـ)، وعادت مراكش للأحداث بثورة محمد العالم نجل السلطان وعامله على السوس (1112هـ)، بعد أن ثار ودخل المدينة، فوجه له ابنه زيدان الذي افتتحها وأساء السيرة وتعقب أخاه الثائر بالسوس، واستولى على تارودانت وقبض على أخيه (1116هـ)، ووجهه إلى مكناس وفي الطريق بعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف، فهلك بوصوله إليها. وكذا ثارت فاس وبايعت ابن محرز وتابعتها تازا فحاصرها السلطان وأخضعها سنة 1084هـ. وكانت السوس أيضا قد ثارت مع ابن محرز، ودام الصراع معهم طويلا بين حرب وصلح (1083-1096هـ) إلى أن أدرك ابن محرز خطأ فقتل (1096هـ)، فواصل الثورة أخوه الحران ودامت إلى أن اقتحم السلطان تارودانت سنة 1098هـ، فاستباحها، وفر الحران إلى الصحراء. وعادت الثورة بالسوس مع أبو النصر بن إسمعيل بين 1123 و 1125هـ، إلى أن قتله أولاد دليم من عرب السوس، وهم من مجموعة الأودايا أخوال مولاي إسمعيل. والظاهر أن المجموعة البربرية بالسوس كانت هي المنازعة للسلطان ، ذلك ان الذين قتلوا ابن محرز هم من العرب أيضا.

وقد ثارت الصحراء أيضا، درعة ونواحيها، وكان أول الثائرين الحران (1088هـ)، الذي قبض عليه ثم عفي عنه، ليعود مع إخوته للثورة، بمساندة آية عطا، فتوجه إليهم السلطان وفي حرب دامية

فر الثوار داخل الصحراء (1090هـ). وثارت من جديد مع ابن السلطان أبو نصر (1114هـ)، فأخذ درعة، فبعث السلطان إبنه مولاي الشريف الذي أقر الأمن، وفر أخوه ليعود إلى الظهور بالسوس.

وقد قامت هذه الثورات في مناطق النزاع القديمة، في مناطق أبي حسون التي قضي عليها؛ وفي نواحي الشبانات وبقايا الأسرة السعدية من نسائها خاصة، ولكراهية السكان في أداء الضرائب . وثارالدلائيون بالاطلس من جديد، بزعامة أحمد بن عبد الله الدلائي بمعونة أتراك الجزائر، فقام بتادلا ونواحيها، ودامت ثورته إلى أن قاد السلطان جيشه بنفسه واستطاع بمعونة المدفعية القضاء عليها، بعد اغتيال أميرها الفار إلى الجبال (1088-1089هـ). وقامت ثورات أخر لأسباب عدة، كثورة بني يزناسن بالشرق (1091هـ)؛ وتورات صنهاجة بالأطلس الأوسط التابعة بالولاء للدلائيين، وعالجها بطرق خاصة ببناء القلاع وتزويدها بالرجال لمراقبة حركات القبائل.

- **افتتاح الثغور:**

- **فتح طنجة:** كان الخضر غيلان قد واصل حركة الجهاد الشعبي للعياشي في منطقة الهبط ضد الاحتلال الأجنبي؛ فاستولى على القصر الكبير وبدأ في حصار طنجة خاصة (1651م)، فحاصر البرتغال ثم الانجليز بعد؛ لكنه باشتداد الزحف العلوي التجأ إلى معونة الأتراك، ثم في النهاية إلى معونة الإنجليز لمواجهة العلويين، لكن استطاع مولاي اسمعيل من القضاء عليه وعلى مقاومته (1084هـ)، وتولى هو حصار طنجة طويلا إلى أن قرر الانجليز الجلاء عنها ودخلها الجيش المغربي في ربيع الثاني 1095هـ (مارس 1684م).

- **فتح المهدية:** وتعرف بحلق الوادي والمعمورة، وكانت بيد البرتغال منذ 921هـ، ثم بيد الإسبان منذ 1022هـ (1613م)، وحاول العياشي فتحها دون جدوى؛ إلى سنة 1092هـ(1681م) حيث تقرر فتحها، فتوجه إلى حصارها جيش شعبي بقيادة أحد صلحاء سلا احمد حجي، وجيش نظامي ودام حصارها أشهرا إلى أن جلى الاسبان عنها وسلموها للملك المغربي مولاي اسمعيل.

- **فتح العرائش:** كان سلمها المأمون السعدي للإسبان سنة 1019هـ(1610م)، فحاصرها مولاي إسمعيل مدة خمسة أشهر، ثم اقتحموها (1101هـ/1689م)، وكان سكانها ثلاثة آلاف قتل منهم 1200، وأسرى الباقي، وفدي بعضهم، وحصل المغاربة على 180مدفعا منها 22 من البرونز.

- **فتح أصيلا:** وكانت بيد الغسبان منذ 1581من وبعد تحرير العرائش حوصرت المدينة مدة سنة، إلى أن استأمن أهلها للسلطان ثم فروا عنها ليلا بحرا سنة 1102هـ (1691م).

- **محاولات الفتوح:** كانت مليلية بيد الاسبان منذ 903هـ (1497م)، وقد حاول مولاي إسمعيل جاهدا تحريرها، وبنى عليها برج دار المخزن (1090هـ). كما حاول فتح سبتة وضرب عليها الحصار

طويلا دون جدوى. وحاول أيضا تحرير وهران من الإسبان بحملة (1112هـ/1700م) فهاله حصانتها ومنعه قلة المدفعية من حصارها. وكانت هذه المحاولات الفاشلة راجعة إلى منعة تلك المدن واستعانتها بالأسطول البحري لحمايتها، وإمدادها، وقوة الأسطول الإسباني؛ فضلا خمول الروح الوطنية لدى قادة الجيش المغربي، وكثرت معالجة الثورات الداخلية.

- **العلاقات الخارجية**:

قامت فرنسا بمهاجمة حوض أبي رقراق للرد على نشاطات الجهاد البحري، فهاجمت سلا سنة 1081هـ وعاودت مهاجمة الحوض سنة 1091هـ. وعرض مولاي إسمعيل على لويس الرابع عشر عقد معاهدة صلح، إلا أن المبادرات المتكررة خاصة لمبعوثيه محمد بن تميم وأمير البحر ابن عائشة لم تلق نجاحا. وكان اتجاه هذه المحادثات نحو وضع تحالف ضد الإسبان والأتراك، والتفاهم على قضية الأسرى، مع تحرير التجارة بينهما. وأفضى الأمر إلى رجوع المبعوثين الفرنسيين بالمغرب وشغور منصب الممثل القنصلي الفرنسي أربعين سنة (1131هـ/1718م).

أما مع الإنجليز فكانت العلاقة فاترة في هذه الفترة بسبب احتلالهم لطنجة. وكذا كانت الحال مع إسبانيا المحتلة لعدد من مدن الساحل، وكانت المراسلات مع ملكها كارلوس الثاني تدور في الغالب حول تبادل الأسرى لدا الطرفين. في حين كانت العلاقات التجارية مع هولندا وإيطاليا نشطة تمحورت واردات المغرب حول الفولاذ والحديد والذخائر الحربية وغيرها.

- **نقد الدولة الإسماعيلية**:

- توفي مولاي إسمعيل سنة 1139هـ بعد خمس وخمسين سنة من الحكم، ولم يعين خلفا له، ودفن بمكناس. وقد ترك عددا من الذرية، واختلف في قضية خطبته للأميرة كونتي الفرنسية.

- وقد عمل على إعادة تنظيم الجيش، متلافيا المؤامرات والتكتلات القبلية المضرة به، فكان عنصر البخاري أكبر فرقه.

- واستطاع بمعونة الجهاد الشعبي فتح العديد من الثغور المغربية،؛ كما استطاع أن يضع حدا لثورات الأمراء والمحاولات الانفصالية المستمرة، كما استطاع ضبط الأمن بالطرق والممرات بالشبكة الأمنية من الحصون والأبراج والقلاع الموزعة.

- وامتد نفوذه إلى شنقيط وما وراء النيجر، وبلغ في توغلاته تلمسان وشلف، واستقبل بيعات قبائلها خاصة قبائل معقل أخواله، ودخلت الصحراء الغربية في بيعته.

- ونأى عن فاس، واتخذ مكناسا عاصمة له، وشاد بها البنايات العمرانية المدنية والعسكرية، وإن كان في ذلك خطأ؛ لأنها كانت منطقة الصنهاجيين الموالين للدلائية، مما سيسبب المتاعب للعاصمة بعد.

- وقد كان مولاي إسماعيل حذرا من الطرق الصوفية في عملها السياسي، الذي لم تنجح في إنشاء وحدة مغربية باستثناء الجزولية؛ على أنه كان يعظم الصلحاء والفقهاء ويسمع إلى نصائحهم.

- وقد واجه معارضة في بعض سياساته الخاصة، كقضية التجنيد الإجباري للحراطين وتمليكهم، الذي عارضه فيه فقهاء فاس وامتحنوا بسببه.

- وقد نظرت إليه المصادر الأوربية كرجل شديد البطش خصوصا تجاه الأسرى النصارى، وهذا مفهوم من جهة كونهم من أعدائه التقليديين.

ج- عصر الملوك السبعة (أزمة العرش):

- أحمد الذهبي- عبد الملك – عبد الله - علي الأعرج – محمد – المستضيء – زين العابدين (1139- 1171هـ/1727- 1757):

- **مظاهر عصر الملوك السبعة**: كانت أكثر فترات المغرب الأقصى اضطرابا، وأكثرها تشتتا، ومن مظاهرها:

أ- استبداد جيش البخاري بالسلطة، وتدخله في اختيار الملوك وخلعهم، مع خلوه من العاطفة الوطنية، والرؤية السياسية الواضحة.

ب- عودة القبائل الصنهاجية إلى الثورة باتجاهها إلى مساندة أحد الملوك على الآخر؛ وتجمع بعضها لفرض وجودها السياسي. إلا أنها بقيت غير منسجمة ولا لها طموحات وطنية والزعامة الموحدة.

ج- اختلاف الأسرة الحاكمة في تخير السلطان الكفء في تسيير الدولة، مع خلو نظامها من ترتيب في أولية ولاية العهد وشروطها.

د- استغناء الملوك عن خدمة الإطارات الإدارية والسياسية الرئيسة التى بنا بها المولى إسمعيل دولته.

- **أحمد الذهبي** (1139هـ/1727م): بويع بتقديم جيش البخاري، وكان اصغر من أخويه عبد الملك وعبد الله، وقد تحكم فيه هؤلاء واستصدروا منه عدة أحكام بقتل عدد من عمال النواحي الذين كانوا ينازعونهم، من رجال الدولة ووجهاء القبائل، فاضطربت الحال، وكان من أكبر مظاهر ذلك حرب أهلية في عدة مناطق، خاصة بفاس بعد تعدي عنصر الأودايا على أهلها. فبان عجز السلطان، وقرر الجيش خلعه، واعتقله بفاس.

- **عبد الملك بن إسمعيل** (1140هـ/1728م): كان عامل السوس، وببيعته حاول إضعاف البخاري، فخزل أرزاقهم، وحاول الاستعانة بزعماء العرب والبربر عليهم، فثاروا عليه، وفر إلى فاس، وعادوا واستقدموا أحمد الذهبي من تافيلالت. الذي قام بمضاعفة أرزاق الجيش، ثم حاصر فاس وضربها بالمدافع مدة، إلى أن استسلمت، واستسلم أخوه عبد الملك، وسجن بمكناس. ولما مرض الذهبي أمر بخنق أخيه فقتله، وتوفي بعده بثلاثة أيام (1141هت/1729م).

- **عبد الله بن إسمعيل** (1141ـ1171هـ/1729ـ1757م): كان بتافيلالت واتفق عبيد البخاري والأودايا على استقدامه ومبايعته. وبايعه الناس خاصة أهل فاس. لكنه اخذ في البطش بهم، اولا بسبب مطالبته بأملاك الدولة التي استولوا عليها، فحاصر فاسا وضربها بالمدافع حتى أذعنت. ثم قام بفرض إثاوات باهظة على أعيانها ففر الكثير منهم على تونس والسودان ومصر . وبطش بآيت يمور بتادلا؛ وهدم حي الرياض بمكناس؛ إلى أن عمد إلى إعدام آلاف من البخاري ممن اتهمهم بقتل أخيه عبد الملك، فقرروا التحلص منه إلا أنه فر منهم إلى نول عند أخواله المغافرة.

- **علي الاعرج بن إسمعيل** (1147ـ1149هـ/1735ـ1736م): جلبه البخاري من تافيلالت، فبويع ولما لم يكن لديه مال لتوزيعه على جيشه، قبض على السيدة خناثة بنت بكار أم السلطان عبد الله فعذبها لاستخراج الأموال دون جدوى؛ ولما لم يجد ما ينفقه على الجيش قرروا خلعه ففر إلى نواحي تلمسان. وكانت خناثة بتهيئة عودة ابنها، ووعدت البخاري بالعطاء الجزيل، وكانت الأوضاع قد اضطربت وارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعة، وظهر ثوار منهم بالسوس عبد الله ومحمد الجرسيفي الذي دخل أكادير وقتل أهلها.

وعاد عبد الله بن إسمعيل لملكه، وقضى على عدوه القائد سالم الدكالي بفتوى من قاضيه أبو عنان، ثم قام بقتل عدد ممن جاء لبيعته بمكناس من الأشراف والعلماء والأعيان، ثم استباح مكناس وعزل قاضيها. ولما ساءت الأوضاع بفاس بسبب عدوان الاودايا على أهلها قرروا خلعه ونصبوا محمد بن إسمعيل ابن العربية بعد موافقة البخاري. فانسحب السلطان عبد الله إلى جبال الأطلس.

- **محمد بن إسعيل ابن العربية** (1150هـ/1151هـ/1736ـ1738م): واضرب الأمر في عهده اضطرابا شديدا، وكان سفاكا للدماء؛ وأطلق السلطان يد الجيش على الناس، وكثرت اللصوص وقطاع الطرق، ونهب الجيش بفاس خاصة موارد الناس ومخازنهم، فأخلى أغلب الناس فاسا وفروا منها، وحاول وجهاؤها جلب الحبوب من إسبانيا فلم يفلحوا وعمت المجاعة ومات الآلاف من الناس. ولما اشتد

الأمر قبض البخاري على السلطان واعتل بنواحي مكناس؛ ثم استقدموا أخاه المستضيء من تافيلالت، وكانت النواحي قد استقل بها زعماؤها ووجهاؤها.

- **صراع الملوك الثلاثة**:

- لما بويع المستضيء كان قد رشح البخاري قبله أخوه زين العابدين، وبعد فوضى عارمة تآمر البخاري على خلع المستضيء، إلى أن راجع الجيش بيعة عبد الله؛ وبعد مدة اتجه الجيش إلى بيعة زين العابدين من طنجة (1151هـ/1741م)، ثم يتخلى عنه بعدها ويبايع مع أهل فاس عبد الله في بيعته الرابعة! الذي سيواجه أخوه المستضيء من جديد، فينتصر ويبايع بمكناس بيعة خامسة! وبعدها بعد اضطراب كبير مع إخوته وخاصة المستضيء يصفوا له الأمر، ويتخذ من فاس مقرا له، بعيدا عن مكناس ومشاغبة البخاري بها، هذا الأخير الذي تناقص عدده وبدأ يضعف؛ إلى وفاة السلطان بفاس في صفر 1171هـ(1757م)، وكان قد اعتزل رؤية الناس قبل موته باثنتي عشرة سنة.

- **الدولة المحمدية و عودة الوحدة المغربية**:

- **محمد بن عبد الله** (1171ـ1204/ 1757ـ1790م): كان معدودا في فقهاء وعلماء البيت العلوي، خليفة لأبيه على مراكش وما جاورها، وكان متأثرا بالمنصور الذهبي. بويع بيعة عامة سنة 1171هـ وعمره ثمان وثلاثين سنة، وكانت بيعة إجماع. ويذكر من صفاته ذكاؤه وعبقريته السياسية وتدينه وبساطة عيشه. وكان جل وزرائه من العرب. وقد عاصر أحداثا مهمة كحرب الاستقلال الأمريكية والثورة الفرنسية.

- **الثورات**: واجه ثورات محدودة الأثر، كان بعضها امتدادا لغيرها، قليلة التنظيم، وبعضها نزاعات محلية، وأغلبها حركات نهب وسلب؛ ومنها: ثورة غمارة وقائدها أبو الصخور محمد العربي الخمسي (1171هـ)؛ ثورة مسفيوة بناحية الحوز (1175هـ)؛ اضطرابات القبائل العربية وكان أكثرها بسبب اجتماعي، ومنها حركة الثائر كلخ بنواحي مركش (1181هـ)؛ وعرفت بلاد الأطلس ثورات واضطرابات ومنها فتنة الشيخ محمود الشنقيطي بفاس مع أعيانها وقبائل البربر ضد السلطان (1175هـ)؛ والوقيعة بقبيلة آيت تيمور بتادلا (1179هـ)؛ وثورة تافيلالت التي كانت آية عطا وآيت يافلمان تساند عمه الحسن، فأخرجهم من قصورهم، ونقل عمه إلى مكناس (1198هـ)؛ ومن أخطرها ثورة ابنه اليزيد وعبيد البخاري بمكناس (1189هـ)، والتي واجهتها القبائل الموالية للسلطان (آيت إدراسن وجروان والأودايا) وهزمتها، واحتمى اليزيد بضريح المولى إدريس بزرهون إلى أن عفي عنه.

- **الثغور**: وقام السلطان في سنة 1173هـ بجولة لتفقد الثغور المغربية وبنى بعض الأبراج؛ ثم قام بحملة فتح البريجة وكانت بيد البرتغال منذ 907هـ (1502م)، فحاصرها بجيشه وضربها بالمدفعية (1182هـ/1769م)، واضطر البرتغال إلى الجلاء، وقبل ذلك فخخوها وهدموا مااستطاعوا منها، فتسارع المغاربة في دخولها فقتل في تفجيرها خلق منهم، فسميت بالمهدومة، ثم رممت بعد وسميت بالجديدة. وحاول السلطان فتح مليلية، وكانت بيد الاسبان منذ 903هـ (1497م)، وحاصرها وضربها بالمدفعية (1188هـ)، لكنه فشل في النهاية بسبب خيانة بعض القادة، وخديعة في معاهدة الصلح التي وضعها مع الملك الإسباني شارل الثالث (1179هـ).

- **الإصلاحات والسياسات**:

- الجيش: أشأ جيشا كبيرا، لطموحه في إدخال المغرب الأوسط في نفوذه، وانضم إليه مجموعات من الحراطين (1179هـ)، وأنشأ فريقا جديدا من اليكشارية من حوز مراكش، كانوا يؤلفون فرقة المشاة، ولم يتجاوز الجيش النظامي الخمسة عشر ألفا، وصرف البخاري أحيانا عن الجندية تأديبا. واستعمل بعض القبائل في حملات التأديب ضد بعضها. واستعان الجيش كذلك بمتطوعة الجهاد. واستعان السلطان بحامية فرنسية لمدينة الصويرة. وعزز حاميات الثغور بالبناءات والمعدات. واستقدم خبراء أتراك لصهر المدافع وتدريب رماتها.

وواصل الجهاد البحري، وأمر السلطان ببناء السفن الحربية لبعض الربان كالريس العربي، وبنا مجموعة منها بتطوان (1173هـ)، وبنا سفنا ذات طابقين. وكانت تركيا وإنكلترا والسويد بتزويده بالتجهيزات التقنية لسفنه. وكان عدد السفن في زمنه خمسين سفينة منها عشرون باخرة كبيرة، وعدد ربانها الستين، وجيشها الفا من المشارقة وثلاثة آلاف من المغاربة، مع ألفين من رماة المدفعية.

- الاقتصاد: كان من أوائل الإجراءات الاقتصادية التي طبقها توظيف المكوس على الأبواب والسلع والمنتجات الفلاحية، بعد فتوى من الفقهاء؛ وأيضا أقر تبادل المنتجات الزراعية الفائضة عن الاستهلاك المحلي بالمواد الحربية الخارجية. وتكاثرت المراكز التجارية بأكادير والصويرة وآسفي والرباط والعرائش. واستطاع مجابهة سني المجاعة (1190-1197)، وقد رتب توزيع الخبز في مختلف المدن على المحتاجين، وتلقى سكان البوادي سلفات طائلة من الدولة، وأسقطت عنهم ضرائب ومغارم تلك السنين، وكدا تلقى التجار سلفات لجلب المواد الغذائية من أوربا.

وارتبط المغرب بمعاهدات مع دول كثيرة، لأول مرة، تخص العلاقات التجارية والشؤون الدبلوماسية وقضايا الأسرى.

- **السياسة الدينية**: اتجه السلطان في هذا المجال اتجاها إصلاحيا، فرغم إعجابه بالحضارة الأوربية إلا كان يكره التقليد في التشريع المرتبط بالمذهب المالكي؛ فاتجه إلى تدوين مجموعة من الأحاديث النبوية المتعلقة بالأمر التشريعي؛ وظهرت لذلك حركة حديثية واسعة النطاق لم يعرف لها مثيلا إلا في العصر الموحدي.

وعرفت حركة التعليم انتعاشا حقيقيا دون إصلاح في البرامج. وتأثر القضاء بالروح التنظيمية، خاصة فيما تعلق بأحوال المظلومين من فئات المجتمع؛ وأصدرت نصوص تشريعية في شكل ظهائر متتابعة تحدد التزامات القضاة في مجموعة من المعاملات الأساسية. ونكب قضاة مخالفون لها، كما نكب العمال والولاة الجبابرة ممن استخف بقدر السلطنة أو أخلاق البلاد.

وإذا نال المحدثون والفقهاء مقام الشرف عند السلطان، فإن الطرق الصوفية قد أصبح بعضها محل ريبة من المخزن، خاصة تلك التي عارضت الدولة أو كانت مأوا للمنازعين لها؛ وقد نكب السلطان زاوية ابي الجعد ونفى شيخها (1199هـ)، وهم أيضا بهدم الزاوية الناصرية بدرعة لولا أن حمتها الأقدار(1203هـ). ومع هذا لم يكن السلطان معاديا لها بقدر ما كانت أعمالا ذات طابع سياسي محض.

- **العلاقات الخارجية**: كان عصر انفتاح في العلاقات مع الدول الأوربية والإسلامية؛ بفتح السفارات والقنصليات وإرسال البعثات والسماح للشركات الأوربية. وقد كانت العلاقات مع العثمانيين في أحسن أوقاتها، خاصة بعد ضعف الخلافة وحاجتها للدعم المادي؛ و السلطان أقرضها أموالا كبيرة في حربها ضد الروس. وكانت له علاقات خاصة مع أمراء الحجاز وقد زوج إحدى كرائمه من الشريف سرور (1182هـ).

وكانت العلاقات مع الأوربيين في تطور كبير؛ خاصة مع الفرنسيين، الذين عقد معهم عدد من المعاهدات، كان أهمها معاهدة سيدي محمد ولويس السادس عشر سنة 1777م، التي نصت على إلغاء الرق بين البلدين، وتحسنت العلاقات حتى أمدته فرنسا بفرقة من المتطوعين كحامية لمدينة الصويرة منذ 1784م، وكان المهندس الذي وضع تصميم المدينة فرنسيا أيضا.

وكانت الدنمرك قد أنشأت منذ عهد السلطان عبد الله شركة تجارية كان لها حق احتكار التجارة في مراكز الساحل الأطلسي لمدة أربعين سنة (1751هـ)، وتواصل توسعها في عهد السلطان محمد، وكان الملك فريدريك الخامس الدنمركي مالكا لأكثر أسهمها، إلى أن صفيت أعمالها سنة 1767م. وكانت عدد من الدول الأوربية تقدم ما يشبه الجزية لمزاولة تجارتها البحرية كالدنمرك، إلى سنة 1845م.

وفترت العلاقة من بريطانيا، وكان من معالمها الاعتراف المغربي باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية. واقتصرت مع اسبانيا على معاهدات مفاداة الأسرى، وكانت سفارة الكاتب احمد الغزال سنة 1179 (1765م) لهذا الغرض. ثم سمح المغرب بموجب اتفاق الصداقة والتجارة (1780م) لشركة "كامبانا ريسو" بتنشيط التجارة بفرعها بالدار البيضاء. وتدخل العاهل المغربي للإفراج عن الأميرة الاسبانية الأسيرة عند الجزائر (1199هـ). ووقعت مع الأمريكيين أول معاهدة سلم وتجارة سنة 1786م عوضت فيها جزية عبور السفن بهدايا ذات قيمة.

يتبع...